

المحاضرة الثامنة

الأسرة العمورية (820- 867م)

العناصر التي تتناولها المحاضرة:

- ميخائيل الثاني (820- 829م)
- ثيوفيلوس (829- 842م)
- ميخائيل الثالث (842- 867م)

شارك ميخائيل العموري في المؤامرة التي انتهت بالفتك بالإمبراطور ليو الخامس الأرمني، وتولى الحكم ليؤسس أسرة جديدة هي الأسرة العمورية، نسبة إلى موطنه مدينة عمورية، وأشرك ابنه ثيوفيلوس معه منذ توليه حكم الإمبراطورية، حتى يكون أسرة حاكمة على الفور، وعلى الرغم أن ميخائيل الثاني كان من مناهضي الأيقونات، إلا أن الأمر تغير عندما وجد نفسه إمبراطور مسئول عن جميع المواطنين داخل الإمبراطورية، بمعتقداتهم المختلفة، ولذلك بمجرد توليه عرش الإمبراطورية، قرر اتخاذ سياسة مختلفة، فأعاد الرهبان الذين تم نفيهم إلى أديرتهم مرة أخرى، وأمر بمنع مناقشة الأمور المتعلقة بالأيقونات في الأماكن العامة، والتجمعات الكبيرة، وترك حرية الاعتقاد فيها تبعاً لما يراه كل مسيحي، في محاولة منه لتحقيق الاستقرار الداخلي للإمبراطورية، فأغضب هذا التصرف زملاء الإمبراطور وأعداء الأيقونات، لأنهم كانوا يأملون أن يقضي عليها الإمبراطور قضاء تاماً، وفي نفس الوقت لم تقنع هذه السياسة الأيقونيين، وخاصة الرهبان الذين أعادهم للأديرة، فطالبوه بإثبات حسن نيته تجاههم، وبإعادة جميع الأيقونات من تماثيل وصور مقدسة التي أمر الإمبراطور ليو الخامس بإزالتها، إلى ما كانت عليه قبل عصر الإضهاد، والطبع رفض الإمبراطور هذا الطلب، لأنه في الأصل من معارضي الأيقونات، وبذلك نال عداً مناهضي الأيقونات وسخطهم الشديد، وفي نفس الوقت لم ينل رضا مؤيدي الأيقونات.

واجه ميخائيل ثورات كبرى، بدأت بمحاولة تمرد **توماس الصقلي** على الأوضاع الاجتماعية والدينية في الإمبراطورية، فقام بمحاولة اغتصاب العرش، وما لبثت حركته أن تحولت لثورة، نتيجة عدة عوامل تجمعت لصالح توماس، إذ أن السياسة الدينية التي اتخذها الإمبراطور لاسترضاء الأيقونيين أثارت غضب الجميع، بالإضافة لتعرضه لغضب الكنيسة بسبب زواجه الثاني، إذ كان ميخائيل الثاني قد قرر أن يضيف على حكمه صفة الشرعية، فتزوج من ابنة الإمبراطور قسطنطين السادس، وكانت قد اعتزلت الدنيا واختارت حياة الرهبنة، فأخرجها من عزلتها داخل الدير وأجبرها على الزواج منه لينال بزواجه هذا صفة الشرعية في الحكم.

وكانت لسياسة ميخائيل الثاني الدينية دور كبير في دعم توماس الصقلي بعدد من المؤيدين، فتجمع حوله عدد كبير من المتحمسين لمساعدته، حتى تحولت حركة التمرد ومحاولة اغتصاب العرش لثورة كبيرة، ففي نظر مؤيدي الأيقونات كان توماس المدافع عن عودة مكانة الأيقونات والصور في المجتمع البيزنطي، وهذا الفريق يمثل قطاع كبير من المجتمع البيزنطي، وكان توماس من جهة أخرى، زعيماً بين قومه الصقالبة الذين وجدوا معاملة سيئة من الإمبراطورية، ومن استخدامهم كعبيد، وتحميلهم بكثير من الضرائب، فبدأت الحركة من البداية تتخذ شكل الثورة الاجتماعية، فكان أول من انضم إليه في حركته التمردية العبيد والأقنان، ثم انضم له عناصر فارسية، وتلقى مساندة من جميع الصقالبة الذين ينتمي إليهم، والذين اتفقتهم الضرائب، وتعاطف مع توماس عدد كبير من سكان الشرق، وأقنعوا جامعي الضرائب في المناطق الآسيوية بتسليم حصيلة الضرائب لتوماس، للإستعانة بها على تجهيز قواته كي يواجه الإمبراطور ميخائيل الثاني.

وتمكن توماس من الاتصال بالخلافة العباسية لمساندته، وتوثقت العلاقة بينه وبين الخليفة المأمون، الذي أمده بجيش كبير، كان عوناً له لأن أغلب أنصار توماس لم يكونوا من رجال الجيش، وقام بطيرك انطاكية بتشجيع من الخليفة المأمون ومساندته، بتتويج توماس الصقلي إمبراطوراً في مدينة إنطاكية، وتقدم توماس بجيش الدولة العباسية، بالإضافة لجنوده الذين درّبهم على القتال، في أراضي الإمبراطورية البيزنطية، واستولى على عدة مقاطعات، قام بتوزيعها على أنصاره، وتقدم توماس حتى بلغ القسطنطينية عام 821م، وقام بحصارها برا وبحرا، ولكنه بالطبع لم يستطع اقتحام أسوارها، واستمر الحصار عدة أشهر، لم يستطع خلالها توماس إحراز أي تقدم، وانتهى الأمر بهزيمته، لعدة أسباب:

1. تمكن الإمبراطور ميخائيل من الاتصال ببعض القادة الذين انضموا لتوماس واستمالهم بالمناصب والأموال، فدخلوا عن توماس وانضموا لقوات الإمبراطور.
2. ارسل الإمبراطور لحاقان البلغار يطلب منه المساعدة للقضاء على الثوار، فوافق مقابل الحصول على قدر كبير من المال.
3. استاء الأيقونيين الذين تجمعوا حول توماس من اتصاله بالخلافة العباسية التي تحارب الأيقونات، فانفضوا من حوله.

ونتيجة انسحاب عدد كبير من المؤيدين لتوماس، اضطر للإنسحاب بما تبقى معه من قوات نحو تراقيا، ولكنه وقع بقواته تحت وطأة حصار القوات البيزنطية من جهة، وجيوش البلغار من جهة أخرى، وفي نفس الوقت تمكن الإمبراطور من تدبير مؤامرة مضادة بين صفوف قوات توماس، فغدر به بعض أصدقائه نهاية عام 823م، وسلموه للإمبراطور، الذي أمر بقتله، وتم القضاء على حركته التي استمرت نحو ثلاث سنوات، كبدت الإمبراطورية نفقات كثيرة، سواء لزيادة تحصينات القسطنطينية، أو لتمويل الجيوش، أو استمالة المنضمين لتوماس، ثم لدفع مبالغ كبيرة للبلغار مقابل مساعدة الإمبراطورية في التخلص من الثورة، ومن الناحية العسكرية، أدت ثورة توماس لإرهاق الجيش والأسطول، الذين توجهت كامل طاقتهم لحماية القسطنطينية، والقضاء على الثوار، وأهملوا حماية الممتلكات البيزنطية في صقلية وإيطاليا، وغيرها، فلم يكد ميخائيل الثاني يتخلص من حركة توماس، حتى قابل مشاكل جديدة في كل من كريت وصقلية، إذ قامت مجموعة من المنشقين عن الخلافة الأموية في الأندلس عام 827م بالاستيلاء على كريت، ووجدوا الدعم من الخلافة العباسية، وساعدهم على ذلك أن كريت كانت مأوى الساخطين على الحكم البيزنطي، وعلى منع تقديس الأيقونات، فلم يجدوا مقاومة من الحامية أو السكان عند دخولها، بل تقول الروايات بأن الرهبان الساخطين على الإمبراطور هم اللذين ساعدوا المسلمين في دخول كريت.

وفي نفس الوقت، قامت حركة تمرد في صقلية 827م، بقيادة **يوفيموس** 827م، الذي أعلن نفسه إمبراطوراً، واستطاع أن يجمع حوله عدد كبير من الساخطين على الإمبراطور ميخائيل الثاني، ولكي يتمكن من التغلب على قوات الإمبراطورية، قرر يوفيموس الإستعانة بقوات خارجية مثلما فعل توماس الصقلي من قبل، فاتصل بالأغلبية في شمال أفريقيا، الذين أرسلوا أسطولهم البحري إلى صقلية، فاستولى على عدة مدن هامة، حتى أنه عند موت ميخائيل الثاني عام 829م، كانت صقلية قد كادت تخرج من تحت السيطرة البيزنطية.

ترك ميخائيل الثاني الإمبراطورية في حالة صعبة، فقد كانت مثقلة بالأعباء المادية نتيجة تلك الصراعات التي خاضها الإمبراطور منذ توليه الحكم، بالإضافة إلى أن أحوال الجيش والأسطول لم تكن مستقرة، وكان كلاهما يحتاج للإصلاح وإعادة التنظيم.

ثيوفيلوس (829-842م):

ككل القادة العسكريين الذين لم ينالوا حظاً طيباً من التعليم والثقافة، عندما وصل ميخائيل الثاني العموري لحكم الإمبراطورية، كان حريصاً على توفير خير المعلمين لابنه ثيوفيلوس، فكلف أشهر وأمهر علماء العصر **(يوحنا جراماتيكوس)** بتثقيفه وتعليمه وتهذيبه.

وأظهر ثيوفيلوس مهارة واضحة في إدارة شؤون الإمبراطورية الداخلية، وأهتم بالأحوال الاقتصادية والاجتماعية، ووجه مجهودات خاصة لتحسين أحوال الفقراء، وساعده في كل ذلك معلمه الذي كان يستشير في جميع أحوال الإمبراطورية، فتمكن في فترة قصيرة من الخروج بالإمبراطورية من الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها في نهاية عهد ميخائيل الثاني، فعاشت الإمبراطورية في عصره فترة من الانتعاش الاقتصادي، كما أنه وجه اهتماماً كبيراً للجيش، وتمكن من إعادة تنظيمه، غير أن سياسته الدينية تجاه الأيقونات كانت عنيفة، فلم يرض بسياسة اللين التي اتبعها والده الإمبراطور ميخائيل الثاني، ومحاولة إرضاء جميع الأطراف، فعاد لإضطهاد الرهبان واهانتهم، ونفى عدد كبير منهم خارج القسطنطينية، وصادر أملاك الأديرة.

أما عن سياسته الخارجية، فقد أهتم في بداية حكمه بتأمين الحدود البيزنطية الإسلامية، فأنشأ عدة ثيمات حربية على الحدود، ووجد ثيوفيلوس في ثورة **بابك الخرمي** على الخلافة العباسية، فرصة للانتقام من المسلمين لمساعدة كل من توماس الصقلي، ويوفيموس في الثورة على الإمبراطور ميخائيل الثاني، فلم يتردد حين طلب منه بابك المساعدة ضد الخلافة العباسية، فأعد ثيوفيلوس جيوشه واتجه شرقاً حتى بلغ زبطرة عام 837م، فاقتحمها وأساء معاملتها أهلها، وأحدث بها مذبحاً كبيراً، ثم اتجه نحو سميساط وملطية، في نفس الوقت كان **الخليفة المعتصم** قد تمكن من القضاء على ثورة بابك، وقرر أن يتجه مباشرة نحو عمورية، مسقط رأس أسرة الإمبراطور، لينتقم مما فعله بالمدن الإسلامية، ووضع المعتصم خطته العسكرية بحيث يستطيع أن يطبق على الجيوش البيزنطية من أكثر من جهة، فقسم جيشه ثلاثة أقسام، وتولى هو قيادة واحد من الأقسام الثلاثة.

وعندما بلغ ثيوفيلوس تجهيزات الجيش الإسلامي، سارع بقواته نحو عمورية، فقد توقع أن يهاجمها الخليفة العباسي، وزاد في تحصيناتها الدفاعية، وجعلها بالمؤن والزاد لتستطيع الصمود أمام الحصار الإسلامي، وتقدم هو بجيشه ليقابل الجيش الإسلامي قبل أن يبلغ عمورية، وأنتهى الأمر بتعرض الجيش البيزنطي لهزيمة كبيرة عام 838م، وتشتتت القوات البيزنطية، ولأد الإمبراطور نفسه بالفرار، وأرسل للخليفة المعتصم يطلب الصلح على الشروط التي يضعها الخليفة، إلا أن المعتصم أصر على التقدم نحو عمورية، والانتقام مما فعله الإمبراطور بالمسلمين، فتقدمت الجيوش الإسلامية نحو عمورية، وخربوا كل ما قابلهم في طريقهم إليها، حتى بلغوها وضربوا عليها حصاراً استمر لمدة أسبوعين، حتى سقطت، وأسر المعتصم كل من فيها وتم بيعهم كعبيد.

أرسل ثيوفيلوس من جديد للخليفة العباسي يطلب الصلح، فوافق المعتصم هذه المرة، وتم الصلح عام 841م، غير أن المعتصم كان يفكر في التقدم نحو القسطنطينية، فأعد جيوشه للخروج لحصارها، وقرر أن يتوج انتصاراته الحربية بفتح القسطنطينية، إلا أنه توفي في العام التالي 842م، قبل اتمام مشروعه، ولحق به الإمبراطور ثيوفيلوس.

ميخائيل الثالث (842-867م):

ترك ثيوفيلوس ابن قاصر هو ميخائيل الثالث، الذي حكم تحت وصاية والدته **ثيودورا**، وكان للأُم الدور الرئيسي في تسيير أمور الإمبراطورية في الفترة الأولى من حكم ميخائيل الثالث، وكان أول أعمالها هو إعادة حقوق الأيقونيين، وعودة الرهبان للأديرة، ورد جميع مستحقات الأديرة التي صادرها ثيوفيلوس، غير أنها لم تتعرض لمناهضي الأيقونات، فلم تعزلهم من وظائفهم، أو تتبع تجاههم سياسة متشددة، فمر أمر عودة الأيقونات دون مشاكل كبيرة، إلا أن يوحنا جراماتيكيوس عارضها في سياستها هذه، فقامت بعزله على الفور قبل أن تتجمع حوله الآراء المعارضة.

ركزت ثيودورا جهودها لإدارة شئون الدولة، واستمرار حالة الإصلاح الإقتصادي، وأوكلت أمر رعاية ابنها ميخائيل الثالث، وتعليمه واعداده لتولي شئون الإمبراطورية لشقيقها **برداس**، الذي كان من بين أعضاء مجلس الوصاية على الإمبراطور.

وكانت جزيرة كريت التي آلت للمسلمين عام 827م، قد أصبحت تهدد أملاك الإمبراطورية في حوض البحر المتوسط، وكانت كريت الإسلامية تتلقى الدعم من مصر، فأمرت ثيودورا قواتها البحرية بالإغارة على المواني المصرية، فكانت الحملة البيزنطية البحرية على دمياط عام 853م، فتقدمت قوات الأسطول البيزنطي وهاجمت المدينة، وكان يوم عيد الأضحى، فقتلوا عدد كبير من الأهالي، وأشعلوا النيران في السفن الراسية في الميناء، لإعتقادهم أنها كانت مجهزة بالمعدات الحربية استعدادا لنقلها إلى كريت.

وفي تلك الأوقات كان برداس شقيق الإمبراطورة يحاول التدخل في شئون الحكم، وفي كل مرة تمنعه من ذلك، فأدى الأمر للصدام بينه وبين شقيقته، وإصراره على استخدام حقه في مجلس الوصاية بإبداء الرأي، وانتهى الأمر باستخدام حقه هذا في عزلها عن الحكم، وطردها من القصر الإمبراطوري، وتمكن هو من السيطرة على الإمبراطور الذي كان قد تجاوز السن القانونية للوصاية، ويحق له تولي الحكم منفردا، غير أن خاله كان يود الإنفراد بإدارة شئون الإمبراطورية، واستخدم لذلك أبشع الوسائل، فقد تعمد أن يجعل الإمبراطور بعيدا عن الإهتمام بأمور الإمبراطورية، وكان الحل في جعله غائبا عن الوعي طول الوقت، فعلمه شرب الخمر حتى أدمن الخمر، وأصبح لا يكاد يفيق منها، وجمع حوله الجواري والمحظيات.

أصبح ميخائيل الثالث معروفا بشروذ الذهن، وادمان الخمر، والغياب عن الوعي، وكان كلما استرد وعيه تألم من حاله، فحاول التخلص من إدمان الخمر ولكنه لم يفلح في تحقيق ذلك، فقد كان خاله يأمر بأن تقدم له الخمر طوال الوقت، فلا يستطيع الإستغناء عنها، وكان ميخائيل يعلم ذلك، فكره خاله برداس كرها شديدا، وفي لحظة من أوقاته استرداد وعيه القليلة، قرر التخلص منه، فأمر بقتله.

حاول ميخائيل الثالث تدبير أمور الإمبراطورية، فلم يستطع القيام بذلك بمفرده، فقرب إليه صديقه بازل، ومنحه لقب قيصر، وترك له تدبير أمور الحكم وإدارة شئون الإمبراطورية.

وكانت هجمات الروس قد بدأت تشتد على الإمبراطورية، حتى أنهم وصلوا القسطنطينية، ومن جهة أخرى كانت الإمبراطورية تعاني من هجمات الخزر والبلغار وغيرهم، ووجدت الإمبراطورية أنه لا قبل لها بمواجهة جميع العناصر المغيرة، وكان بطريك القسطنطينية فوشبوس قد أعد خطة لإدخال هذه القبائل في المسيحية، وفي نفس الوقت كانت بابوية روما تفكر في هذا الأمر، إلا أن التحرك كان أسرع من جانب الإمبراطورية البيزنطية، التي قررت لأول مرة استبدال سياسة الحروب المستمرة، بالتبشير بالمسيحية بين هذه الممالك، واستخدموا في ذلك رجال دين على علم بلغات القومية لكل قبيلة من القبائل، فكان الأمر أيسر، لأن التبشير قبل ذلك كان باللغة اليونانية، فأدى لبناء حاجز بين هذه الشعوب وبين تقبل ديانة لا يفهموها، فساعدت فكرة اللغات القومية على تقبل هذه العناصر للمسيحية، فدخلوا فيها على مذهب

الإمبراطورية الأوثوذكسي، فدخل الخاقان البلغاري بورييس المسيحية عام 864م، وتم تعميده تحت اسم ميخائيل تشبها بالإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث، وتبعه الشعب البلغاري كله فدخلوا في المسيحية، وحدث ذلك مع الخزر والسلاف ثم الروس وغيرهم، وكان البطريرك فوشيسوس قد أعد لجنة لترجمة طقوس الصلاة للهجات المختلفة لتلك الشعوب، وأرسلت الإمبراطورية وفود دينية إلى الروس والخزر والبلغار، ليعلموهم أصول الدين المسيحي وتعاليمه، وأنصرف قادة هذه الدول لوقت طويل لتنظيم الشؤون الداخلية لبلادهم، ودراسة أحوالها، ومراجعة قوانينهم، وتغيير ما يخالف تعاليم المسيحية منها، وساعدت كنيسة القسطنطينية في هذا الأمر مساعدات واضحة، فأهتمت بتوفير فصول دراسية لإعداد المبشرين باللغات القومية، وساهمت بتأسيس الكنائس في بلاد البلغار والروس والخزر، وإقامة المعاهد العلمية لتعليم رجال الدين من تلك البلاد وتأسيسهم للقيام بنشر تعاليم المسيحية بين الأهالي، وكان لهذه السياسة دور كبير في تهدئة الصراعات الخارجية للإمبراطورية، كما ساعدت في نشر الثقافة البيزنطية بين تلك الشعوب، وتحولت العلاقات بين الإمبراطورية وتلك القبائل إلى نشاط كبير في التجارة، وتبادل السلع، وساعد ذلك الإمبراطورية على تركيز الأعمال الحربية للإمبراطورية على العلاقات مع المسلمين وتأمين الحدود البيزنطية الإسلامية.

غير أن الجانب الآخر لتلك السياسة، هو زيادة الهوة بين القسطنطينية وروما، فقد زاد التنافس بين البطريرك والبابا على إرسال البعثات التبشيرية لتلك القبائل، وعلى إثبات علو شأن كل منهما على الآخر، وقد حاول الإمبراطور ميخائيل الثالث تدارك الأمر، فأرسل يسترضى البابا نيقولا الأول، فكان رد البابا أن على الإمبراطور إقالة البطريرك فوشيسوس من منصبه، غير أن الإمبراطور تمسك بالبطريرك، وقام الأخير بالدعوة لمجمع ديني، حضره الإمبراطور نفسه عام 867م وأصدر قرار بطرد البابا من رحمة الكنيسة البيزنطية، وحاول ميخائيل الثالث للمرة الثانية تهدئة الأوضاع بعد هذا القرار، فأرسل للبابا سفارة تحمل هدايا، منها ثوبا صنع للبابا من أجود أنواع الحرير البيزنطي، مطرزا بصورة السيد المسيح وحوله الحواريون، دليل على موقف الإمبراطور من تبجيل الأيقونات، ولكن البابا ظل على موقفه، وانتهى الأمر بقطيعة دينية بين بطريركية القسطنطينية وبابوية روما، عرفت في التاريخ بقطيعة فوشيسوس.

وخلال تلك الأحداث، زادت أحوال الإمبراطورية اضطرابا، وكان القيصر بازل قد ألم بكل أمور الحكم، ورسم خطة جيدة لإدارة شؤون الإمبراطورية، فتخلص من صديقه الإمبراطور ميخائيل الثالث، وتولى الحكم تحت إسم بازل الأول.